مجلة الدوحة ملتقى الإبداع العربي والثقافة الإنسانية - 1948نبيل عناني.. الحياة الفلسطينية قبل عام

1948نبيل عناني.. الحياة الفلسطينية قبل عام

رام الله- مهند عبد الحميد

عشرون لوحة فنية آسرة كثفت الحياة الفلسطينية الطبيعية ما قبل الاقتلاع والتشريد، صور صامتة بالأسود والأبيض تعود لبدايات وأواسط القرن العشرين، دبّت فيها الحياة، وتحوّلت إلى حميمية بصرية، ضمن عملية تخييل جمالي، جالبة معها الفرح والبهجة والاعتزاز والثقة، كل ذلك صنعته ريشة الفنان المُخضرم نبيل عناني في معرضه الجديد «فلسطين ما قبل الـ 48» الذي أُقيم في غاليري الزاوية/رام الله خلال الفترة (6 - 20 ديسمبر/كانون الأول 2014)، ومن المُنتظر أن يجول المعرض عواصم عربية وأجنبية.

عشرون صورة أبيض أسود حوّلها عناني إلى عشرين لوحة بألوان زاهية برّاقة في إطار من المنمنمات التي زادتها جمالاً. الصور الفوتوغرافية وألبوم العائلة أحد عناصر الذاكرة الفلسطينية التي ما زالت تفعل فعلها، وأحد المصادر التي اعتمدها الفنان عناني في استحضار الماضي الجميل. مئات الصور شاهدها الفنان من ألبوم صورٍ يخصّ المصوّر الفلسطيني/ اللبناني الأصل «خليل رعد»، الذي يضمّ حوالي ألفي صورة تذكارية، كانت بمثابة كنز لموروث فوتوغرافي تختبئ خلفه قصص، توثّق الحياة الاجتماعية والثقافية والتجارية في المدن والقرى الفلسطينية، إضافة إلى الأحداث والشخصيات السياسية. توقّف عناني عند صور عائلات فلسطينية مدينية وريفية وبدوية ترمز إلى مكونات المجتمع الفلسطيني.

لوحات (الحياة قبل عام 1948) هي لون من مساءلة الصورة الفوتوغرافية بعد تحولها الجمالي إلى لوحة فنية. نجحت في تحفيز المشاهد على قراءتها بحثاً عن المدلولات الإيحائية، ومحاولة استخراج التمثلات الذهنية للسلوك والقيم في مرحلة تاريخية سابقة. كيف تتحوّل الصورة الفوتوغرافية إلى عملية دلالية، إلى لغة وانتاج معنى وتطبيع ما هو تاريخي وما هو ثقافي؟ إنها جدل الصورة والواقع، الانتقال من الواقع إلى صورته الفوتوغرافية والعودة إلى الواقع من خلال صورته الفوتوغرافية. كل صورة لوحة في معرض نبيل عناني أنتجت مدلولات إيحائية رمزية هي عبارة عن مدلولات تاريخية وثقافية، رغم تعدّد القراءات والقرّاء.

أكثر من صورة لعائلة دبدوب / بيت لحم في العام 1900، وصورة لعائلة منصور/ بيرزيت، التقطت في العام 1922. وصورة لعائلة من رام الله 1907، هذه الصور التي حوّلها عناني إلى لوحات تسرد شكل الحياة الفلسطينية قبل الدمار وتفكيك المجتمع والعائلات. تُبيّن الطابع الفلاحي لجزء كبير من المجتمع من خلال الأزياء المُطرّزة للنساء والعِمَّة والكوفية، مع أنه يغلب على عائلة منصور المسيحية في بيرزيت الطابع المديني باستخدام – الطربوش وربطات العنق -، الصور تُبيّن حالة الاستقرار النفسي والإلفة والتماسك الأسري والحياة الطبيعية في بلدات وادعة لم ترقَ إلى مستوى مدينة حينذاك. أما عائلات القدس 1922، ويافا وحيفا 1920، وصفد 1948، كما تبدو في اللوحات، فهي عائلات مدينية

بحسب الأزياء، يلاحظ الثراء الروحي والتماسك الاجتماعي والثقة بالنفس. التأثر بالأزياء الغربية، وبخاصة عند النساء والانفتاح على الحضارة الإنسانية ومنتجاتها المختلفة، لم يلغِ التراث الثقافي الفلسطيني والعربي، بل عَزّزَ التنوّع الثقافي وقَدّمَ المجتمع المُتنوّع المُوحّد بفلاحيه وأفنديته ومدنييه وبدوه.

لوحة ملكة جمال فلسطين «اندولين حوا» من عكا 1941. ولوحة أول سيارة تصل إلى الناصرة في العام 1928، ولوحة جوهرة قعوار الناصرة 1937، مؤسسة نادي النهضة النسائي. ولوحات الفتاة التي تملك أطول شعر عام 1889. اللوحات تشير إلى حياة ثقافية غنية فعالة وحيوية، وإلى مواكبة الشعب الفلسطيني للتحضّر واستجابته الملموسة للتطوّر كسائر شعوب المنطقة قبل العام 1948. أكثر لوحة ملفتة في المعرض كانت لوحة شابات يشربن القهوة، وهي مأخوذة عن صورة حقيقية في العام 1900، لفتيات فلسطينيات تربطهن علاقة صداقة وينتمين للديانات الثلاث (الإسلام والمسيحية واليهودية). الفتيات متشابهات لا يمكن التمييز بينهن لا في الملامح ولا في الأزياء ولا في الانسجام كمجموعة. اللوحة هنا ترمز إلى التعايش بين الديانات الثلاث وقبول الآخر، تعايش عكس المستوى الحضاري والثقافي المُتقدّم للمجتمع الفلسطيني، الذي ظَلّ سائداً إلى أن طُرِحَ المشروع الصهيوني الذي دعمه الاستعمار البريطاني. فأخذ التعايش بالانفضاض بالترافق مع تغلغل الاستيطان الكولونيالي والهجرة «اليهودية»، ومع بداية عملية إقصاء السكان الأصليين، وسلخ معتنقي الديانة اليهودية من مجتمعهم الفلسطيني المُتعدّد وسلخ اليهود العرب من مجتمعاتهم وثقافتهم العربية أيضاً، ومع تواصل عملية إحلال المستعمرين الجدد مكان السكان الفلسطينيين الأصليين.

الصراع الفلسطيني- الإسرائيلي امتدّ إلى الصور، فقد اكتشفت الباحثة الإسرائيلية «رونا سيلع» سرقة الصور التي تُجسّد حياة ثقافية واجتماعية عظيمة للفلسطينيين قبل النكبة كما تقول. المؤسسات الإسرائيلية التي قامت بالسرقة ما زالت تحتجز هذا الموروث التاريخي من أجل حجب الحقائق عن المجتمع الإسرائيلي وإبقائه أسير الرواية الكاذبة عن الصراع وعن واقع الشعب الفلسطيني. صورة الفلسطيني النمطية التي تقدمها الكتب المدرسية الإسرائيلية- بحسب الأكاديمية الإسرائيلية «نوريت بيليد الحنان»- هي صورة رجل يُطلق شاربيه يرتدي جلابية ويضع كوفية ويسوق جَمَلَه خلفه. أما صور اليهود فهي من الطراز الغربي الحديث. الكتاب المدرسي يُقدّم سبع صور فوتوغرافية للاجئين، ثلاثاً منها مأخوذة عن قرب للاجئين يهود بين عامي 1945 - 1956. الصور الأخرى للاجئين الرونديين والصوماليين والهايتيين مأخوذة عن بُعد وغير واضحة معالمهم الإنسانية، الصورة الأخيرة هي صورة مُلتقطة من مسافة بعيدة جداً لمخيم صفيح لا يظهر منه أي إنسان هو مخيم جباليا في قطاع غزة. الصور تُقدّم جميع اللاجئين باستثناء اللاجئين الفلسطينيين كأناس يسعون إلى النجاة بحياتهم. ولا تفسر الصور كيفية تحوّل الفلسطينيين إلى لاجئين. صور الكتب تضع الطلبة أمام مشهد التخلّف العربي مقابل الحداثة الإسرائيلية. وصورة المستوطنة التي تقترن بالابتكار والحداثة والطبيعة الجميلة، مقابل صورة القرية الفلسطينية المقترنة بالتخلّف والخمول!

لوحات الفنان نبيل عناني الجديدة قَدّمَتْ الوجه الآخر النقيض للصور الإسرائيلية المُجتزأة والمشوهة التي تجرد الفلسطيني من إنسانيته. وكانت رداً فنياً عميقاً على التزوير الإسرائيلي الفظّ. أعمال فنية قَدّمَتْ واقعاً مُدعّماً بشبكة انتماء لهوية فلسطينية عميقة الجذور في المكان. ونجحت في استعادة جزء مهم من المخزون البصري للذاكرة الجماعية، والاهم نجحت لوحات الفنان عناني في تجديد التوحد الجمالي بين الناس أيام زمان وناس هذا اليوم، في لحظة تشهد استشراس القيادة الكولونيالية الإسرائيلية في محاولة فرض رواية واحدة تدعم الاستحواذ النهائي والكامل على الوطن الفلسطيني من خلال الدولة اليهودية والحقوق التاريخية المزعومة.

ما يُميز الفنان نبيل عناني حساسيته لتفاصيل البيئة المحلية المتخمة بالمَآسي والمعاناة والقهر والاستفزاز والمَآثر والبطولة والصمود. لذا فإن لوحاته تنبثق من الواقع الفلسطيني وتشتبك مع محاولات الإقصاء وتتشكّل بلون وملمح ونداء

وسخرية وتحدٍ وصبر وقوة الأشياء. يقول الفنان خالد حوراني بعد مشاهدته للمعرض: «ينهمك عناني مع أبناء جيله في بناء ذاكرة وهوية شعبه وفي المرافعة الجمالية عن حقه الطبيعي في وطنه التاريخي، الذي يعني مواصلة طرح السؤال الوطني من جيل إلى آخر. ويرى حوراني أن جيله الفني يستند إلى الإنجاز الكبير لجيل إسماعيل شموط ونبيل عناني وسليمان منصور وغيرهم، ويحاول الإضافة الفنية لمنجزاتهم، دون أن يكون هناك تعارض، فالتنوّع والتعدّد الفني يغنيان الإبداع والمشهد الفني برمته».